تأويلات أبي مسلم الأصفهاني محمد بن بحر (ت ٣٢٢هـ)
للحروف المقطّعة
دراسة تحليليّة نّقديّة مقارنة

الباحث/ ممدوح صالح محمود نصار

لدرجة الدكتوراة بقسم اللغة العربية كلية الاداب – جامعة المنوفية

إشراف

الأستاذ الدّكتور/ ياسر عطية الصّعيدي

أستاذ الدّراسات الإسلاميّة ورئيس قسم اللّغة العربيّة

بكلّيّة الآداب جامعة المنوفيّة

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ، وبعد/

فهذا بحث استللته من رسالتي المقدمة لنيل درجة الدكتوراه من قسم اللغة العربية – كلية الآداب – جامعة المنوفية، **بعنوان** /

تأويلات أبي مسلم الأصفهانيّ (ت٣٢٢هـ) لآيات القرآن الكريم

دراسة تحليليّة نّقديّة مقارنة

أولا: أهمية الموضوع:

١- أنزل الله القرآن للتدبر قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[١]، والحروف المقطعة التي افتتح الله بها بعض السور جزء من القرآن الذين أمرنا الله بتدبره.

٢- فواتح القرآن متنوعة الأسلوب؛ ومن بين هذه الفواتح: الحروف المقطعة، وتدبر هذا النوع من الفواتح يفتح للدارسين والعلماء بابا عظيما من أبواب العلم بفواتح القرآن الكريم.

[١] سورة ص، الآية: ٢٩.

٣- القرآن الكرين وحدة واحدة مترابطة الأجزاء متناسقة البنيان؛ ومن أعظم مظاهر هذا التناسق والترابط: علاقة الفواتح بموضوع السورة وخاتمتها مما يؤكد تكامل بناء القرآن وترابط وتناسق لبناته؛ والحروف المقطعة تمثل جزءًا كبيرًا من هذا البنيان القرآني.

٤- مدارس التفسير وإن اختلفت مواردهم ومصادرهم غير أن وجهات الاختلاف والاتفاق بينهم تُظهر للعالَم كله العقلية المسلمة العبقرية السمحة، والحروف المقطعة من أوسع ميادين التأويل القرآني بين مدارسه؛ ففي تأويل الحروف المقطعة وحدها خمسة وثلاثون قولا.

ثانيًا: تساؤلات البحث:

١- القرآن باعتبار معرفة تأويله على أربعة أقسام؛ فالحروف المقطعة من أي أقسامه؟

٢- ما هو تأويل أبي مسلم الأصفهاني للحروف المقطعة؟

ثالثا: أهداف البحث:

١- التعرف على مذاهب المفسرين في تأويل الحروف المقطعة.

٢- الإفادة من الحكمة العامة لورود الحروف المقطعة على هذه الصورة.

رابعا: خطة البحث:

يتكون هذا المبحث من مقدمة تشتمل على أهمية البحث، وتساؤلات البحث، وأهداف البحث، وخطة البحث.

ومطلبين:

المطلب الأول: هل في القرآن ما استأثر الله بعلمه؟

المطلب الثاني: تأويلات أبي مسلم للحروف المقطعة.

الخاتمة: وتشمل على:

١- أهم النتائج. ٢- توصيات البحث.

٣- المصادر والمراجع. ٤- والفهرس.

****

تأويلات أبي مسلم للحروف المقطّعة؛ اللّاتي افتتحت بها بعض سور القرآن الكريم

يتكون هذا المبحث من مطلبين:

المطلب الأول: هل في القرآن ما استأثر الله بعلمه؟

العمدة في جواب هذا السؤال: آية وأثر:

أما الآية فقول الله تعالي: ﴿هوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْه آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَه مِنْه ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِه وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَه إِلَّا اللَّه وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِه كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(٢)

وأما الأثر: فقد قال ابن كثير في تفسيره: [عن ابن عبّاس ﷺ أنّه قال: "التّفسير علي أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه.

وتفسير تعرفه العرب من لغاتها.

وتفسير يعلمه الرّاسخون في العلم.

وتفسير لا يعلمه إلّا اللّه."

ويروى هذا القول عن عائشة، وعروة، وأبي الشّعثاء، وأبي نهيك، وغيرهم] (٣).

وفي ضوء هذه الآية – علي أحد قولي المفسرين –، وهذا الأثر يُعلم أن القرآن فيه قسم استأثر الله بعلمه، ولكن ليس علي سبيل الإطلاق؛ بمعنى أن هذا القسم استأثر الله بعلم حقيقة كيفيته.

ومثال ذلك، ذات الله العلية وصفاته المثلي.

وأما باعتبار معناه لغةً فمعلوم معناه من لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم.

وكذلك باعتبار الحكمة المرادة من اللفظ الذي اطّرد استعماله في القرآن الكريم.

والناظر في القرآن الكريم يجد سورًا افتتحت بالحروف المقطعة، وذكر بعدها الحديث عن القرآن الكريم؛ وبيان ذلك:

---

(٢) سورة آل عمران، من الآية: ٧.

(٣) تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ٢/ ١٢.

[مجموع الحروف بحذف المكرر منها: أربعة عشر حرفًا، يجمعها قولك: "نص حكيم قاطع له سر"، وهي في تسع وعشرين سورة.

وكل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾(٤)، ﴿الم اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نزلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾(٥)، ﴿المص كِتَابٌ أُنزلَ إِلَيْكَ فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ﴾(٦)، ﴿الر كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾(٧)، ﴿الم تَنزيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(٨)، ﴿حم تَنزيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾(٩)، ﴿حم عسق كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١٠)، وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر، والله أعلم](١١).

وأمر هذا شأنه وإن استأثر الله بالمراد من كل حرف في موضعه الوارد فيه، فإن حكمة الله تقتضي أن يعلم المعنى الجامع والحكمة الإلهية من اطراده علي صورة واحدة "حروف مقطّعة" في جميع موارده.

والسؤال هنا: كيف أوّل أبو مسلم الحروف المقطعة؟

وجواب هذا السؤال هو المطلب الثاني.

المطلب الثاني: تأويلات أبي مسلم للحروف المقطعة:

الآية الأولي: قال تعالي: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فيه هدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١٢).

---

(٤) سورة البقرة، الآيتان: ١، ٢.
(٥) سورة آل عمران، الآيات: ١، ٣.
(٦) سورة الأعراف، الآيات: ١، ٣.
(٧) سورة إبراهيم، الآية: ١.
(٨) سورة السجدة، الآيتان: ١، ٢.
(٩) سورة فصلت، الآيتان: ١، ٢.
(١٠) سورة الشورى، الآيات: ١، ٣.
(١١) انظر تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٥٤.
أ) (١٢) سورة البقرة، الآية: ١.

الآية الثّانية: قال تعالي: ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾(١٣).

الآية الثالثة: قال تعالي: ﴿المص كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْه لِتُنذِرَ بِه وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١٤).

الآية الرّابعة: قال تعالي: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾(١٥).

قال أبو مسلم: [المراد بذلك: أنّ هذا القرآن الّذى عجزتم عن معارضته ولم تقدروا علي الإتيان بمثله هو من جنس هذه الحروف الّتي تتحاورون بها في كلامكم وخطابكم، فحيث لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من فعل الله.

لأن العادة لم تجر بأنّ النّاس يتفاوتون في القدر هذا التّفاوت العظيم.

وإنّما كرّرت في مواضع؛ استظهارًا في الحجّة]

ثم ذكر أقوال مخالفيه والرد عليها فقال:

[إنّها لو كانت أسماء للسّور: ما كنّا نرى كثيرًا من السّور خاليًا مّن القرآن منها، ولا كانت تكون من القرآن، وكان المسلمون قد سمّوها به.

ومحال أن يكون الله جعلها أسماء للسّور، ولو كان كذلك لما اختلف المسلمون فيها.

وأمّا قول من ذكر أنّها تقتضي كلّ حرف معنًى يشبهه: فلم يرد ذلك في خبر عن النّبيّ مقطوع به، ولا في لسان العربيّة ما يقتضيه.

ولو كان بغير لغة العرب لكان النّبيّ ﷺ قد فسّره لهم ورفع الاختلاف فيه.

ويبطل ذلك قوله تعالي: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍ مُّبِينٍ﴾(١٦).

ومن قال: "إنّها علامة علي أنّ السّور الّتي قبلها قد انقضت":

فما في هذه الحروف ما يقتضي ذلك، ولا يفهم منه هذا.

ب) (١٣) سورة آل عمران، الآيات: ١، ٤.
ت) (١٤) سورة الأعراف، الآيتان: ١، ٢.
ث) (١٥) سورة يونس، الآية: ١.
ج)(١٦) سورة الشعراء، الآية: ١٩٥.

أو يبطله ما ذكر علي إبطال أنّها أسماء للسّور.

وأمّا من قال: "إنّه من المتشابه الّذي لا يعلم تأويله إلّا الله":

فإنّ الله لم يخبرنا أنّه استأثر علينا بشيء من علم المتشابه.

ثمّ قد بيّن لنا في كتابه ما تفرّد به من حديث وقت القيامة وعلوم الغيب.

وأمّا من قال: "إنّها حروف الجمل، وإنّها أوقات الأشياء تكون(١٧)":

فالّذي يبطل قوله وينقض مذهبه: أنّ من علم ما هو كائن فقد علم الغيب الّذي استأثر الله به، وقد أخبر الله أنّه لا يطلع علي غيبه أحدًا، وإذا كانت هذه حروف الجمل فقد عرفنا المراد بها، ويصير النّاس عالمين بالغيب.

وإنّ النّبيّ ﷺ لم يعرف حروف الجمل، وإنّما هي من علوم أهل الكتاب.

ولو كانت من حروف الجمل لدلّت علي الأمور الّتي يختلف النّاس فيها.

وأمّا من ذكر أنّها من أجل تواطئ الكفّار ألّا يسمعوا القرآن:

فكيف يخاطبهم بغير العربيّة، والقرآن يتضمّن أنّه بلسانهم، وكان يكون سببًا لإعراضهم عن سماع القرآن.

وأمّا أنّها لو جمعت لكانت أسماء الله تعالي:

فإنّما علّمنا الله تعالي أسماءه لندعوه بها، فقال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾(١٨).

ولم يكن يأمرنا بذلك إلّا ويوضّحه.

ولا يفهم من الحروف المقطّعة هذا، وهذا قول مطروح مرذول.

والّذي عندنا: أنّه لمّا كانت حروف المعجم أصل كلام العرب، وتحدّاهم بالقرآن، وبسورة مّثله أراد أنّ هذا القرآن من جنس هذه الحروف المقطّعة الّتي يعرفونها ويقدرون علي أمثالها، فكيف عجزكم عن الإتيان بمثل القرآن بسورة منه؟!

دليل علي أنّ المنع والتّعجيز لكم مّن الله، وأنّه حجّة رسول الله ﷺ.

وممّا يدلّ علي تأويله: أنّ كلّ سورة افتتحت بالحروف أتى بعدها إشارة إلي القرآن؛ يعني: أنّه مؤلّف من هذه الحروف الّتي تعرفونها وتقدرون عليها.

---

(١٧) هكذا العبارة، وأرى أن الصواب: " وأنها أوقات لأشياء تكون"

ح)(١٨) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

إن قيل: لو كان المراد هذا؛ لكان قد اقتصر الله علي ذكر الحروف في سورة واحدة، أو أقلّ ممّا ذكر؟

قلت: عادة العرب: التّكرار عند إيثار إفهام الّذي يخاطبونه].

الدّراسة:

١- حكى هذا القول عن أبي مسلم: الطوسي(١٩)، والحاكم(٢٠)، والطبرسي(٢١)، وابن طاوس(٢٢).

وقد كان أبو مسلم يكرر تأويله للحروف المقطعة في المواضع التي سبق ذكرها، غير أنه كان يوجز في موضع ويبسط الكلام في آخر.

وقد جمعت كل أقواله في الحروف المقطعة في هذه العبارة التي سبق ذكرها.

٢- قال ابن طاووس بعد نقله كلام أبي مسلم: [ما ذكره من الرّدّ علي الأقاويل فبعضه قريب مّوافق لّلعقول، وبعضه مخالف لّلعقول:

فإنّ قوله: "فإنّ الله لم يخبرنا أنّه استأثر علينا بشيء من علم المتشابه، ثمّ قد بيّن لنا في كتابه ما تفرّد به من حديث وقت القيامة وعلوم الغيب".

وهلّا جعل هذا من جملة علم الغيب الّذي استأثر الله به؟!

أو من القسم الّذي قال الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾.

وأمّا قوله: "﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾".

فالآية فيها استثناء، فهلّا ذكر الاستثناء بقوله تعالي: ﴿إِلَّا﴾، وغير ذلك من الجواب الّذي يطول.

وأمّا قوله: "إنه أراد تنبيه العرب علي موضع عجزهم عن الإتيان"

فهذا لو كان، لكانت الصّحابة قد عرفته قبله ونقلوه نقلًا ظاهرًا ومتواترًا، فكيف يعلم هو ما يكون قد خفي عن الصّحابة والتّابعين وتابعي التّابعين، ولم يكشف لهم

---

(١٩) انظر التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، دار إحياء التراث العربي، ١/ ٤٨.

(٢٠) انظر التهذيب، الحاكم، ١/ ٢٢٠، ٢٢١. وفي: ٢/ ١٠٩٤، ١٠٩٥. و: ٤/ ٢٤٩٤.

(٢١) انظر مجمع البيان، الطبرسي، دار العلوم، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ٤١، ٤٣. باختصار.

(٢٢) انظر سعد السعود، ابن طاووس، ص٤٤٦، ٤٥٢. باختصار.

سيّد المرسلين]؟!(٢٣).

٣- قول أبي مسلم: [فحيث لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من فعل الله] فقد انفرد الطوسي بحكاية هذه العبارة عن أبي مسلم، وهي نزعة اعتزالية أشار إليها أبو مسلم.

قول أبي مسلم: [فحيث لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من فعل الله]: خبيئة اعتزاليّة؛ حيث وصف كلام الله بأنه من فعل الله؛ ويعني بذلك: أن القرآن مخلوق لله؛ وذلك علي مذهب المعتزلة في القول بخلق القرآن الكريم.

٣- وهذه العقيدة قد أنكرها وردّ عليها أئمّة الإسلام الكبار؛ مثل الإمام أحمد بن حنبل وغيره، وقد مرّ قوله، وقول ابن أبي العزّ الحنفي.

قال الإمام القرطبيّ: [﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فيه هدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: فكتاب اللّه تعالي لا شكّ فيه ولا ارتياب؛ والمعنى: أنّه في ذاته حقّ، وأنّه منزّل من عند اللّه، وصفة من صفاته، غير مخلوق ولا محدث](٢٤).

٤- أمّا أدلّة القرآن علي أنّه كلام الله غير مخلوق، فكثيرة متنوّعة؛ منها قوله تعالي: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاه أَن نَّقُولَ لَه كُن فَيَكُونُ﴾(٢٥).

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّه الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُه حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِه أَلاَ لَه الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾

قال القرطبي: [قال ابن عيينة: فرّق بين الخلق والأمر؛ فمن جمع بينهما فقد كفر.

فالخلق: المخلوق، والأمر: كلامه الّذي هو غير مخلوق وهو قوله: ﴿كُنْ﴾.

﴿إِنَّمَا أَمْرُه إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُول لَه كُنْ فَيَكُون﴾(٢٦).

وفي تفرقته بين الخلق والأمر دليل بيّن علي فساد قول من قال بخلق القرآن؛ إذ لو كان كلامه الّذي هو أمر مخلوقًا لكان قد قال: ألا له الخلق والخلق.

(٢٣) سعد السعود، ابن طاووس، ص٤٤٦، ٤٥٢. باختصار.
(٢٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ، ١/ ١٧٨.
(٢٥) سورة النحل، الآية: ١٤٤.
(٢٦) سورة يس، الآية: ٨٢.

وذلك عيّ من الكلام ومستهجن ومستغثّ.

واللّه يتعالي عن التّكلّم بما لا فائدة فيه.

ويدلّ عليه قوله سبحانه.

﴿وَمِنْ آيَاته أَنْ تَقُوم السَّمَاء وَالْأَرْض بِأَمْرِه﴾(٢٧).

﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِه﴾(٢٨).

فأخبر سبحانه أنّ المخلوقات قائمة بأمره؛ فلو كان الأمر مخلوقًا لافتقر إلي أمر آخر يقوم به، وذلك الأمر إلي أمر آخر إلي ما لا نهاية له.

وذلك محال.

فثبت أنّ أمره الّذي هو كلامه قديم أزليّ غير مخلوق؛ ليصحّ قيام المخلوقات به.

ويدلّ عليه أيضًا قوله تعالي: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنهمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾(٢٩).

وأخبر تعالي أنّه خلقهما بالحقّ؛ يعني: القول وهو قوله للمكونات: ﴿كُنْ﴾.

فلو كان الحقّ مخلوقًا لما صحّ أن يخلق به المخلوقات؛ لأنّ الخلق لا يخلق بالمخلوق.

يدلّ عليه: ﴿وَلَقد سَبَقَتْ كَلِمَتنَا لعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾(٣٠).

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عنها مُبْعَدُونَ﴾(٣١).

﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾(٣٢).

وهذا كلّه إشارة إلي السّبق في القول في القدم، وذلك يوجب الأزل في الوجود.

وهذه النّكتة كافية في الرّدّ عليهم](٣٣).

قال ابن قدامة المقدسيّ: [واتّفق أهل السّنّة علي أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق](٣٤).

---

(٢٧) سورة الروم، الآية: ٢٥.

(٢٨) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢٩) سورة الحجر، الآية: ٦٧.

(٣٠) سورة الصافات، الآية: ١٧١.

(٣١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠١.

(٣٢) سورة السجدة، من الآية: ١٣.

(٣٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٧/ ٢١٥.

(٣٤) حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة، عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي أبو محمد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ، ١٤٠٩، تحقيق: عبد الله يوسف الجديع، ص٤٧.

٥- دليل السنة: روى البخاري عن أبى هريرة يبلغ به النّبىّ ﷺ قال: «إذا قضى اللّه الأمر في السّماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله كأنّه سلسلة علي صفوان.

فإذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم؟

قالوا الحقّ وهو العلي الكبير.

فيسمعها مسترق السّمع، ومسترق السّمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بكفيه فحرفيها وبدّد بين أصابعه - فيسمع الكلمة، فيلقها إلي من تحته، ثمّ يلقها الآخر إلي من تحته، حتّى يلقها علي لسان السّاحر أو الكاهن، فربّما أدرك الشّهاب قبل أن يلقها، وربّما ألقأيها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة.

فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟!

فيصدّق بتلك الكلمة التي سمع من السّماء»[٣٥].

٦- دليل عقلي فتح الله علي به:

ثبت أن القرآن من علم الله وفيه من علمه، وكلام الله بصفة عامّة هو من علمه؛ إذا كان كلام الله وأعظمه القرآن كلّ ذلك مخلوق محدث؛ ونفي صفة الكلام يلزم منه إما الوصف بعدم قابلية المحل، وإما الوصف بالبكم، وعدم قابلية المحل والبكم صفتا نقص؛ وكذلك نفي صفة العلم يلزم منه إما الوصف بعدم قابلية المحل، وإما الوصف بالجهل، وكلاهما نقص.

والسؤال هنا للمعتزلة: ماذا كان الله قبل أن يخلق كلامه؟! وقبل أن يخلق علمه؛ إذ كلامه من علمه وبعلمه؟!

فلزم المعتزلة بقولهم بخلق كلام الله أنه كان قبل خلق كلامه أبكم جاهلًا، ثم خلق الكلام فاتّصف بالكلام، واتصف بالعلم؛ تعالي الله عمّا يقول الظّالمون علوًّا كبيرًا.

فوجب القول بأن القرآن كلام الله، وكلامه سبحانه صفته، وصفات الله غير مخلوقة.

٧- **النّتيجة:** تأويل أبي مسلم للقرآن بأنه من فعل الله؛ إشارةً إلي مذهب المعتزلة في القول بخلق القرآن الكريم.

---

[٣٥] البخاري، كتاب: التفسير، سورة سبأ، باب: (حتّى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ وهو العلى الكبير).

والّذي دلّ عليه القرآن والسّنّة والإجماع والعقل أنّ القرآن كلام الله، وليس بمخلوق.

وقد خالف أبو مسلم بتأويله هذا القرآن والسّنّة والإجماع والعقل، وتبعًا لذلك خالف المفسّرين.

٤- أمّا اعتراضات ابن طاووس علي أبي مسلم فأراها صوابًا ما عدا الاعتراض الأخير؛ وهو: [وأمّا قوله: "إنه أراد تنبيه العرب علي موضع عجزهم عن الإتيان"

فهذا لو كان، لكانت الصّحابة قد عرفته قبله ونقلوه نقلًا ظاهرًا ومتواترًا، فكيف يعلم هو ما يكون قد خفي عن الصّحابة والتّابعين وتابعي التّابعين، ولم يكشف لهم سيّد المرسلين]؟!

فأقول مستعينًا بالله: إنّ الرّسول ﷺ لم يكن يكشف لأصحابه إلّا ما التبس عليهم فهمه واحتاجوا لمعرفته.

وكون الحروف المقطّعة "تنبيه للّعرب علي موضع عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن" فأمر أبين من أن يدلّ عليه.

وكذلك كان الصّحابة والتّابعون، وهكذا كلّ معلِّم إنّما يعلّم طلّابه ما جهلوه، لا ما علموه، ويوضّح لهم مّا غمض عليهم، وأمّا توضيح الواضحات؛ فتحصيل حاصل وحشو وإطناب في غير موضعه، ينزَّه عنه أفصح من نطق بالضاد.

وكما يقال: توضيح الواضحات من أعقد المشكلات.

٥- **تأويل أبي مسلم صحيح** باستثناء قوله [إنه من فعل الله]، وممّا يدلّ علي صحة تأويله: أنّ كلّ سورة افتتحت بالحروف أتى بعدها إشارة إلي القرآن؛ يعني: أنّه مؤلّف من هذه الحروف الّتي تعرفونها وتقدرون عليها(٣٦).

إن قيل: لو كان المراد هذا؛ لكان قد اقتصر الله علي ذكر الحروف في سورة وّاحدة، أو أقلّ ممّا ذكر؟

---

(٣٦) مثال ذلك قول الله: (الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدًى للمتّقين) البقرة: ١، ٢. وقوله: (المص كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر بهـ وذكرى للمؤمنين) الأعراف: ١، ٢. وقوله: (الر تلك آيات الكتاب الحكيم) يونس: ١.

ودليل قول أبي مسلم: "عادة العرب: التكرار عند إيثار إفهام الذي يخاطبونه":

روى البخاري عن أنس ﷺ أنّ رسول الله كان إذا سلّم سلّم ثلاثًا ، وإذا تكلّم بكلمة أعادها ثلاثًا.

كتاب: الاستئذان، باب التّسليم والاستئذان ثلاثًا.

وروى عجز الحديث في باب: من أعاد الحديث ثلاثًا ليفهم عنه، فقال: «ألا وقول الزّور» فما زال يكرّرها.

وقال ابن عمر: قال النبي ﷺ: «هل بلّغت» ثلاثًا.

قلت: عادة العرب: التّكرار عند إيثار إفهام الّذي يخاطبونه.

٦- وهذا التّأويل من أبي مسلم موافق لأقوال المفسّرين:

وأفضل من جمع أقوال المفسّرين الموافقين أبا مسلم في تأويله، ونصره وردّ علي ما عداه من أقوال بأقوى من ردّود أبي مسلم نفسه؛ هو: ابن كثير فقد قال:

[الحكمة الّتي اقتضت إيراد هذه الحروف في أوائل السّور ما هي مع قطع النّظر عن معانيها في أنفسها:

فقال بعضهم: "إنّما ذكرت ليعرف بها أوائل السّور" حكاه ابن جرير.

وهذا ضعيف؛ لأنّ الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوةً وكتابةً.

وقال آخرون: "بل ابتدئ بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين؛ إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن، حتّى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلّف منه" حكاه ابن جرير أيضًا.

وهو ضعيف أيضًا؛ لأنّه لو كان كذلك لكان ذلك في جميع السّور، لا يكون في بعضها، بل غالبها ليس كذلك.

ولو كان كذلك أيضًا: لوجب الابتداء بها في أوائل الكلام معهم؛ سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك.

وقال آخرون: "بل إنّما ذكرت هذه الحروف في أوائل السّور الّتي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأنّ الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنّه مركّب من هذه الحروف المقطّعة الّتي يتخاطبون بها.

وقد حكى هذا المذهب: الرّازي في تفسيره عن المبرّد وجمع من المحقّقين(٣٧).

وحكى القرطبيّ عن الفرّاء وقطرب نحو هذا(٣٨).

وقرّره الزّمخشريّ في كشّافه ونصره أتمّ نصر(٣٩).

وإليه ذهب الشّيخ الإمام العلّامة أبو العبّاس ابن تيمية(٤٠)، وشيخنا الحافظ المجتهد

(٣٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٢/ ٤، ١٤..

(٣٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ١٧٢، ١٧٥.

(٣٩) الكشاف، الزمخشري، ١/ ٦٩، ٧٠.

أبو الحجّاج المزّيّ، وحكاه لي عن ابن تيمية](٤١).

٧- قول ابن كثير: [مع قطع النّظر عن معانيها في أنفسها] قطعٌ للطمع عن معرفة معنى كل حرف منها؛ لأنه لا يعلم المرادَ بها إلا الله؛ إذ لم يقم دليل على شيء معين أنه هو المراد بها من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا من لغة العرب، فالجزم بأن معناها كذا على التعيين تحكم بلا دليل.

٨- **النتيجة:** استظهار أبي مسلم للحكمة من إيرادها بهذه الصورة استظهار صحيح؛ وخلاصته: "أن حروف القرآن من جنس الحروف التي يتكلمون بها، فلولا أنه معجز لعارضوه وناقضوه" وأدلة صحته:

أ، ب) سياق القرآن واطراد استعماله؛ وبيان ذلك: أن كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء.

ج، د) دليلان فتح الله علي بهما من قواعد اللغة واستعمال العرب:

وبيان ذلك: الحروف العربية تنقسم إلى حروف مبنى وحروف معنى، والحروف المقطعة المفتتح بها بعض سور القرآن حروف مبنى لا تفيد معنى لا في نفسها ولا مع غيرها؛ هذا لغةً(٤٢)، والقرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليبها.

---

(٤٠) ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الاسلام.

ولد في حران٦٦١هـ، ١٢٦٣م، ومات معتقلا بقلعة دمشق٧٢٨ هـ، ١٣٢٨م. الأعلام، الزركلي، ١/ ١٤٤.

(٤١) تفسير ابن كثير، ١/ ٥٨.

(٤٢) قد ذكر الزمخشري في تفسيره أن الحروف المقطعة أسماء معربة [الكشاف: ١/ ٦٥] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: هي في اللّفظ أسماء وفي الخطّ حروف مقطّعة، وقول النّبيّ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَأَعْرَبَهُ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ - الم - حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ و لَامٌ حَرْفٌ و مِيمٌ حَرْفٌ».

والحرف في لغة الرّسول ﷺ وأصحابه يتناول الّذي يسمّيه النّحاة اسما وفعلا وحرفا ولهذا قال سيبويه في تقسيم الكلام: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل.

فإنّه لمّا كان معروفا من اللّغة أن الاسم حرف والفعل حرف خصّ هذا القسم الثّالث الّذي يطلق النّحاة عليه الحرف أنّه جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، وهذه حروف المعاني التي يتألف منها الكلام.

وأمّا حروف الهجاء فتلك إنّما تكتب على صورة الحرف المجرّد ويُنطق بها غير مُعرَبة ولا يقال فيها معرب ولا مبنيّ؛ لأنّ ذلك إنّما يقال في المؤلف [مجموع الفتاوى: ١٧/ ٤٢٠] وأرى أن هذا خلاف صوري لفظي؛ فإني لم أر أحدًا من المفسرين قال "الأسماء المقطعة" وإنما أجمعوا على مصطلح "الحروف المقطعة".

فهذا دليل آخر من اللغة على أن الحروف المقطعة المفتتح بها بعض سور القرآن لا معنى لها وإنما استأثر الله بعلمها.

والدليل الآخر: الكلمات العربية – اسم وفعل وحرف – لم يستعملها العرب إلا مركبةً في جمل – حقيقة أو حكمًا – تعطي معنى تاما.

والقرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليبها؛ فيلزم من ذلك أن الحروف المقطعة المفتتح بها بعض سور القرآن لا معنى لها إلا بضمها لما بعدها فتعطي في سياقها معنى عاما يمثل الحكمة من إيرادها في سياقاتها.

هـ) ودليل ثالث هدانيه اللهُ؛ استفدته من نقد الإمام ابن العربي المالكي للقول بأن الحروف المقطعة أسماء لمسميات معروفة عند العرب([٤٣])؛ وهو دليل قائم على رسم المصحف؛ وبيانه:

قد أجمع الصحابة ﷺ على رسم المصحف بما هو عليه – أسماء وأفعال وحروف – فكتبوا ﴿كهيعص﴾(٤٤) موصولة، وكتبوا ﴿حم عسق﴾(٤٥). مفصولة، وكتبوا ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾(٤٦) حرف صوت لا حرف هجاء؛ أي: لم يكتبوه "قاف" ولو كتبوه حرف هجاء لصح أن يكون اسما أو فعلا موضوعا لمعنى تعرفه العرب؛ بدليل أن العرب لما استعملتها لمعانٍ موضوعة لم يثبتوه حرف صوت، وإنما أثبتوه حرف هجاء كقول الوليد بن عقبة:

قلت لها قفى فقالت قاف لا تحسبينا قد نسينا الإيجاف(٤٧).

---

(٤٣) قانون التَّأويْل، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي، المتوفى: ٥٤٣هـ، دراسة وتحقيق: محمّد السّليماني، دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، جَدّة، مؤسَسَة عُلوم القرآن، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص٥٣٢.

خ)([٤٤]) سورة مريم، الآية: ١.

د) ([٤٥]) سورة الشورى، الآية: ١، ٢.

ذ) ([٤٦]) سورة ق، الآية: ١.

(٤٧) جاء في شرح شافية ابن الحاجب: [هو أول رجز للوليد بن عقبة بن أبى معيط، أورد بقيته أبو الفرج الأصبهاني في الأغاني في ترجمته، قال: " لما شهد على الوليد بن عقبة عند عثمان ابن عفان - ﷺ ربه الملك المنان - بشرب الخمر وكتب إليه يأمره بالشخوص فخرج وخرج معه قوم فيهم عدى بن حاتم ﷺ، فنزل الوليد يوما يسوق بهم، فقال يرتجز: قلت لها قفى...]

الخاتمة: وتشمل على:

١- أهم النتائج:

أ) "التّفسير علي أربعة أنحاء: فتفسير لا يعذر أحد في فهمه.

وتفسير تعرفه العرب من لغاتها.

وتفسير يعلمه الرّاسخون في العلم.

وتفسير لا يعلمه إلّا اللّه."

فتوجد آيات استأثر الله بعلمها.

ب) دل سياق القرآن واطراد استعماله على أن الحروف المقطعة مما استأثر الله بعلمه.

ج) دلت اللغة ورسم المصحف على أن الحروف المقطعة مما استأثر الله بعلمه.

د) استظهار أبي مسلم للحكمة من إيرادها بهذه الصورة استظهار صحيح؛ وخلاصته: "أن حروف القرآن من جنس الحروف التي يتكلمون بها، فلولا أنه معجز لعارضوه وناقضوه"

٢- توصيات البحث.

أ) أوصِ أهل العلم منتهين وشداة وخاصة المفسرين بمزيد الاهتمام بالدراسات القرآنية، ومعرفة معاني كتاب الله ومراميه؛ تعظيما لكتاب الله واقتداء بعلماء الأمة الأوائل.

ب) أوصِ أهل العلم منتهين وشداة بتخصيص دراسات حول:

فواتح القرآن، وتخصيص كل نوع منها بدراسة مستقلة، وأوص أن تكون هذه الدراسة قائمة على منهجية التحليل والنقد والمقارنة.

****

المصادر

القرآن الكريم:

١- الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السابعة، ١٩٨٦م.
٢- التبيان في تفسير القرآن، الطوسي، دار إحياء التراث العربي، د، ت.
٣- تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
٤- التهذيب، الحاكم، حققه: عبد الرحمن بن سليمان السالمي، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة: الأولي - ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.
٥- الجامع لأحكام القرآن، للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: الأستاذ الكتور محمد إبراهيم الحفناوي، والأستاذ الدكتور محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٦ هـ ، ١٩٩٦م.
٦- سعد السعود، ابن طاووس، شكتبة الفكر، المطبعة: عترت، الطبعة الأولي ١٣٢١هـ، تحقيق: فارس تبرزيان الحسون.
٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لشيخ الإسلام أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، بتعليق الشيخ عبد العزيز بن باز، ومحب الدين الخطيب، وقصي محب الدين الخطيب، ترقيم/ الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.
٨- صحيح مسلم، بشرح النووي، للعلامة أبي زكريا يحي بن شرف النووي، مراجعة الأستاذ الدكتور محمد محمد تامر، دار الفجر للتراث، الطبعة الأولي، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.
٩- قَانون التَّأويْل، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي، المتوفى: ٥٤٣هـ، دراسة وتحقيق: محمّد السّليماني، دار القبلة للثقافة الإسلاميَّة، جَدّة، مؤسَسَة عُلوم القرآن، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٠- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفي: ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧هـ.
١١- مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الغد العربي، الطبعة الأولي، ١٤١٢ هـ، ١٩٩١م.
١٢- مجمع البيان، الطبرسي، دار العلوم، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
١٣- مجموع الفتاوى لابن تيمية، تحقيق أنور الباز، وعامر الجزار، دار الوفاء، الطبعة الثالثة، ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

* * * * * * * * *